****** زمن الطيـن .. ******

قصة بقلم : مصطفى فاسي

ها قد رجعت ..
سأبذل كل جهودي لافقد ذاكرتي ..
فيا زمنا لا تقهقه في عيوني .
سأسخر منك ومنهم جميعا .

انا (ابن هنا) ، هذه قريتي لي تمد الذراع .. أنا (ابن هنا) سأبقى هنا ..
بأسناني هذي سأحفر أرضي .
سأصنع بستان كرز وروضة زهر أقدمهـا بافـة لليتامى .
سقيت أيا قرية البـذل بالدم يوما ، ويوما . وآن الاوان ليسقي أراضيك عرق الجبين ...
لا تحزني قد رجعت اليك ... حزمت هنا الك ما كنت أدري .. لقد علموني أن أحني رأسي ..
اشاعوا بأني انا ساذج ..
واني بليد .. واني واني ..

لقد حفظوني أمورا كثيرة :
ـ بمجرد وقوف السيارة عليك ان تنزل بسرعة.. وتفتح بابها الخلفي . حذار أن تنسى الابتسامة اللطيفة كالعـادة .
ـ ولكن ...
ـ لا يهمنا ـ مطلقا ـ ما يدور في مخك . لا تنس الابتسامة . ابتسم دائما .

صدقيني يا قريتي العزيزة ، أنا ما رأيت الابتسامة منذ ارتحلت عنك ..
صحيح ، لقد كنت في الماضي راعي غنم ، ولكنني بلبلا كنت ، يرافقني الناي دوما .
لكم كنت أعشق نور القمر ، وتطربني الشمس عند الشروق ، وكنت أغني لليلى وخالد وجابر . وكنا نغني معا ونجري معا ونضحك معا .. فيا زمن العشق أيـن تغيبت ؟..
عمي سليمان ، وخالي رابح ، وجارنا حمـدان ، ترى كيف أنتم ؟.. آه متى الوصول ؟.. صدقوني ، ان شوقي اليكم يعذبني ..
ترى أين كنت ؟ ماذا فعلت ؟ ثماني سنوات كاملة غبتها هدرا ، فهيا جميعا لتحتفلوا بالهزيمة .. لقـد قفل السندباد بخيبته .. عـاد اليكم يجر الهزيمة ، ضيعته المدينة ورمته اليكم . لكم أتلهف أن أمرغ وجهي في هذا التراب ذي الرائحة الزكية .

صغيرا هنا كنت ألعب ، وتبحث ليلاي عني بين الصخور وبين الحشائش ، وحـين ترعرعت أصبحت أحفر هذه الارض بالفأس أخرج خيراتها ...

وفي يوم خريفي جميل .. كـان الهواء خفيفا منعشا ... آه منك يا زمان . كانت الغربان تمر محلقة أسرابا متجهة في جدية صوب الجبل .. وطيور النورس تمضي على ساحل البحر متتابعة على مستوى منخفض من الارض ، وكانت مجموعة كبيرة من طيور «الفريغرو» (١) تشكل خطا منكسرا على ارتفاع كبير وتمضـي الى حيث لا أدري وهي تحدث صوتا موحدا غريبا كأنه يدعو الذين لم يرحلوا بعد الى الرحيل ، محمرة كانت الشمس تنزل جهة الغروب ، وترسـل بقايا أشعتها في كسـل عبر الحقـول .

في هذا اليوم ، وفي هذه اللحظة ، انتعشت روحي السندبادية فلعنت حياة « الخماسة » ورحلت ..

الى هناك حيث المدينة تمـد أيديها الاخطبوطية ، فاستقبلتني ، وضمتني اليها بقوة أدمت عروقي .

وها اني أعود مصفر الوجـه أصابني الذبـول .. عصرتني عشيقتي ..

خلقت طليقا هنا كالرياح .. فماذا دهاني ؟ ومـا الذي قد رمى بي بعيدا ؟.. اني أرغب أن ألثم هـذي الاحجار .. يا لصفاء الجو هنا .. كم بعثوني أبحث عن

---

(١) الفريغرو : هكذا تسمى عند العامة ، تطير في أسراب كبيرة على مستوى عال من الارض ، مشكلة خطوطا منكسرة .

حب الرمان في البر الخالي ...

ـ أمرك سيدتي . أطلبي ما تبغين ، اني في الخدمة ، هل آتيك بقلب الحية ذات العشرة رؤوس ؟ وبأسنان التنين الساكن بعد السبعة ابحر ؟!..

أخبرت اميري بلطف مرة ، اني انسان لي اسرة ، طفلان صغيران تماما مثل ورود حديقة قصره هذا العامر دوما ، ليلاي كادت سيدي تنسى من ذاكرتي .. منذ سنين صار يعشش في جلدي بق الحمام ، كرهتني كل مطاعم بلدتكم هذه .

ـ أميري ، أنا لا ابحث عن قصر .. اني مثل البلبل يمتد خيالي بعيدا عبر جمال الاحلام ، وأغني للدنيا فرحا . قلبي مفتوح ابدا لك . حين ولدت وجدت الناس تغني للقرية ، تعشقها .. فرقصت وغنيت . فقط ابحث عن عش يجمعنا يا مولاي ...

ـ سياراتك الفخمة لا تكفيني سكنا يا مولاي .

في الواقع كنت أرى في هذا الوجه ملامح وجه لا يمكن أن أنساه . وجه واحد .. بطن منتفخ .. عينان تملأهما الحمرة تبعثان بالنظرات نفسها ..

هذا العالم مجهول بالنسبة لي .. لكني أخشاه .. بحر تتلاطم في باطنه كل القذارات .. بحر غامض ، يحمل كل الاسرار الشريرة .

وأنا مسكين ، ولدتني دنيا ذات سماء زرقاء .. الجو الصافي يملأ عيني ابدا . وأحاول أن ابحث عن نفسي .

أميري الاول كان قليل الزيارة للمزرعة .. أعمل وحدي ابدا ، وأراه فقط عند جني الغلة ليتصدق علي برغيف يابس . كان أميري الاول فلاحا لا تمس الارض يده . وأميري المدني المتحضر لا أعرف ما هي بالضبط وظيفته .. ما أعرف عنه ان الحفلات في بيته لا تنتهي ، وانه يغير السيارات مثل القمصان .

مولاي ... سياراتك الفخمة يا مولاي لا تكفيني سكنا ..

فكر لي في الموضوع ، رجاء ، يا مولاي ..

وفرحت كثيرا يوما حين أمرتني أن أذهب عند البناء أجيء به .

حضر البناء ، وبدأ يبني في طرف الحديقة الكبيرة ، كان بيتا جميلا ولكنه صغير ..

وملأ سؤال كبير ذهني : لمن هذا البيت ؟.. وبعد أسبوع استقبل البيت صاحبه . كان « ريلكا » كبيرا كالاسد ، علمت ـ فيما بعد ـ انك يا مولاي دفعت فيه بالعملة الصعبة ثمنا لا يستهان به .

صدقني مولاي لست حسودا . لكني تلك المرة تمنيت أن أكون كلبا .

وازدادت مشاغلي ، كنت من قبل أتنقل بين المزارع وغيرها أفتش عما يرضي سيدي وسيدتي أو أي واحد من أفراد الاسرة .. ولكن هذا لا يكفي ، هنالك سيد آخر لا بد من البحث عن مأكولاته الخاصة حتى لا يغضب أو يضرب عن الاكل .

ـ لا تنس أيضا يا أحمد انه يهوى الجولات . رافقه واطلعه على كل معالم بلدتنا .

آه .. بوبي المسكين نسيته ، أتمنى انه ما يزال حيا ، اذا كان كذلك لا بد انه سيستقبلني فرحا كالعادة . يهز ذيله .. يكاد وجهه يضحك من الفرحة .. يعتمد على نفسه معظم الاحيان في تدبير طعامه .. ابن القرية لا يعرف تعقيدات الحضارة .. أجلس أحيانا تحت شجرة التين الكبيرة التي تربض على الارض في اطمئنان وتظهر من بعيد مثل خيمة خضراء كبيرة .. تقع مباشرة تحت دارنا .. هنالك في ظلها أجلس وقت الحرارة ، أو أتمدد فوق جلد شاة وأنام ، وحين أفيق والتفت حولي أجد بوبي ممددا بدوره على الارض .. قد يفتح عينيه عند سماعه أية حركة تصدر مني ثم يعود الى نومه .

بوبي من القرية ، بوبي بسيط مثل جميع الاشياء هنا في القرية ، بوبي لا يشبه « ريلكا » . فوداعا يا عالم « ريلكا » ، وداعا يا دنيا الخماس ، لن أصبح بعد اليوم أبدا خماسا ، لن أتجول بين مزارع ابن مهيدي وعميروش وكل الشهداء . أفتش عن حب الرمان لسيدتي .

هذي الارض .. آه ما أجملها .. ها هي قد عادت .. سأعود اليها .. لا أعرف أن أعمل في غير الارض ، فيها نبت الاجداد ، والآباء ، ونبت أنا .

ما أجمل أن أشعر اني آكل من عرق جبيني ، ما أجمل ذلك .. كرهتني كل الحانات ، وكل محلات مدينتكم ..

ـ اذهب يا أحمد وائت بسيدك المسكين الفاقد وعيه . يا أحمد احمله في رفق بيديك وضعه على الكرسي الخلفي ودعه ينام ، يا أحمد ابق لطيفا أبدا ، لا تقلق سيدك المسكين الفاقد وعيه .

وصباحا يا أحمد ، عند الفجر ، لا تنس أن تنهض .. سافر يا أحمد للربع الخالي واجلب للسيدة المحترمة مولاتك لحم العنقاء .

وبعد .. يا أحمد .. يا أحمد .. يا ...

سأظل هنا .. لن ابرح هذي الارض .. سأحفرها .. أتمرغ فيها .. صارت أرضي .. ترابها هذا أعجنه ، ومن الطين لكل شهيد أصنع تمثالا ...